شعراء النصرانية بعد الاسلام

شعراء القرون المتأخرة مباشرة بالقرن الرابع عشر

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

١٩ نعمة بن توما (تابع)

هذه نخبة من ديوان نعمة بن توما مما يُستدلُّ بها على جودة قريحته. فمن ذلك قولهُ يرجو من الله التوبة (من مجزوء الكامل):

مَن لي بتوبة خاشعٍ او كيف مثلي يقتنيها
كم قد وعدتُ وعُدتَ عن وعدي وكم عربدتُ فيها
ورجعتُ كالكلب الكلو ب لقَيْئهِ رجعاً كريها
آهاً لتفريطي بها من بعد تعويلي عليها
ما لي اليها مُوصِلٌ إلّاك يجذبني اليها
ولقد اتيتك راجياً من فيض جودك ابتغيها
يا ليتني احظى بخمـ ـرةِ حبّها او اجتليها
واذوق عَذْب رحيقها م الممزوج مع صَهْباء فيها
يا ربِّ هبني توبةً تُرْضيك والعزمُ يَقيها
أنعِم عليَّ بصدقها مع حُسن خاتمةٍ تَليها

وكتب يهنئ المفتي نعمة الله افندي جلبي كواكبي زاده لرجوعهِ ظافراً باعدائهِ (من السريع):

يا كوكبَ الشهباءِ تهْ واتّئدْ على السوى فالصبحُ يمحو الظلامْ
لولا رآكَ اللهُ اهلًا لَما اعطاكَ ما سُدتَ بكلّ الانامْ
مرجّعاً كيدَ الاعادي الى نحورهم نصراً لكم والسلامْ

وكتب تحت ايقونة تمثل مريم العذراء اقتناها لذاتهِ (من الوافر):

اليكِ يا ابنةَ الآبِ السماوي وامَّ الابنِ من غير ارتيابِ
وقبّةَ عهدِ روحها المعزّي مَعين عواطفِ النعَم العِجابِ
اقدّم رسم شخصكِ كي اراكِ بهِ ما دمتُ في هذا الإهابِ
ارجّي بُعدَهُ منكِ وصولًا اليكِ عسى اراكِ بلا حجابِ

وقال في صديق لم يثبت على صداقتهِ وتغيَّر عنهُ (من الوافر):

رجوتُك لا عدمتُ سواكَ ظنًّا بأنّك من جهابذةِ الرجالِ
فصحّ بأنّ بعض الظنّ اثمٌ لِما عاينتُ منكَ من الخِلالِ
بوعدٍ لا وفاءَ لهُ وكذبٍ وتسويفٍ بآمالِ المحالِ
فلم أرَ من رجائي غير اني رجوتُ الوَصل من صَرْمِ الحبالِ

وقال يقرّظ كتاب عبدالله زاخر الذي ألّفهُ ردًّا على اليأس فخر (من مجزوء الكامل):

لله درُّ من كتا بٍ ساطعٍ بالعلم زاخِرْ
ابدى لنا برهانُهُ خِزْيَ ابنِ فخرٍ بابنِ زاخِرْ

وقال يؤرّخ (سنة ١١٥٤ هـ) استشهاد ابرهيم ابن دِيتري يعقوب الدلّال الحلبي. (من مجزوء الكامل):

قد نال ابرهيم اكـ ـليلَ الشهادة والسَّنا

نادت ملائكة العلا تاريخه بلغ المُنى

وقال يذكر الموت وغرور الدنيا (من الكامل):

وردَ المَنونُ فاين يا نفسِ المَفرّ والموت سلَّ عليكِ صارمَهُ الذكرْ
هذه هي الدنيا التي ما شامها ذو فطنةٍ الّا وعنها قد نفرْ
ولقد عرفنا غرَّها وغرورَها منذ الصِبا ومرور ايّام الصِغرْ
فارتدَّ عنها يا اخي ولا تكن ممَّن يخالُ بانها تبدي الغُرَرْ
لا ترجُ منها الوصل في ادّاتها كلّا ولا ما ما قلَّ منها او ندرْ
فاذا اتتك بصفو عيشٍ مرَّةٍ فاعلم بانك عاجلًا سترى الكدرْ
هذه هي حالاتها وصروفها ومصيرهنَّ الى الممات المنتظرْ
فعليكِ يا نفسِ الرجوعُ الى الذي نجّاكَ قبلًا من لظى هذا الشَّررْ
واذري الدموعَ سخينةً عمَّا بدا من قبح سيرك في قذى ذاك القذرْ
واستدركي العَوْد اليهِ قبل ما يأتي المَنونُ وينقطع فيهِ الوترْ
واستشفعي بامّهِ البكر التي هي ملجأ الخاطي تقيهِ من ضررْ
فلكم اتاها مَن علَتْهُ ذنوبهُ فارتدَّ ذا طهرٍ نقيًّا من وزرْ
حاشا حماها ان ترُدّ نزيلها ذا خيبةٍ من رفدها منقضّي مُمرْ

وقال بديهاً أنّ اتاهُ بعض اصحابهِ واردين من الحيا فبشّروهُ بانقطاع الطاعون (من مجزوء الكامل):

اهلًا وسهلًا مرحبا بالقادمين من الحِبا
ومبشّرينا عنوةً بزوال ايّام الوبا

من فيض جودٍ قادرٍ بسَلْب ما قد أوجبا
ورحمةٍ علويّةٍ تُريحُ عنّا الغضبا
أكرمْ بهِ من قادمٍ ابدى البشائر مُعْربا
قد صَحَّ في مُقدَمهِ قولُ الرسول مُرتّبا
اهلًا بأرجل من يُبشِّر بالسلامة عن نَبا
فَلْيَجْزِهِ الرحمانُ من خير الجزا ما استصوبا
بشفاعة البكر التي تملو الملائك مَأْربا
فلها السلام مؤبّدا ما رنّحت ريح الصَّبا
والى النذيرُ مبشّرًا بزوال ايّام الوبا
اذ قيلَ في استقبالهِ اهلًا وسهلًا مرحبا

وفي تلك سنة الطاعون ١٧٦١ انتقل في حلب الى جوار ربهِ الاب اليسوعي فرنسيس كريسيت (François Cruisset) المرسل الرسولي مات شهيد محبّتهِ في خدمة الطاعونيين فقال نعمة بن ترما يؤرّخ وفاتهُ (من الكامل):

يا من أحبَّ الله دون ذاتهِ لعبيدهِ متبرّعاً بحياتهِ
ليُرى كسيّدهِ الذي لمّا افتدى اغنامَهُ احياهمُ بمماتهِ
فيقال هذا العبدُ حقًّا انهُ يُشبه مولاهُ بحدّ صفاتهِ
وهو فرنسيسُ اليسوعيُّ الذي أدّى حساب الله عن وزّاتهِ
ومضى ليقبض اجرهُ مثل التي قد حازها من فيض جود هباتهِ
أكرم بها من اجرةٍ علويّةٍ وردت تؤرّخ حقّ مرغوباتهِ

٢٥ ٥٨

ونختم هذه المنتخبات بابيات قالها في مطابقة ارادته للمشيئة الالهيّة وبها اعرب عن تُقاهُ وصبرهِ على آلام الحياة (من الخفيف) :

يا الهاً لهُ القضا والتقاضي انا راضٍ بكلّ ما انت راضي
عبدُ رقٍّ اسيرُ وَصمةِ ذَنْبٍ يرتجي من رضاكَ حسن التفاضي
ذبتُ شوقاً الى رضاك واني خائفٌ من لقاكَ في إعْراضي
كم توالت جرائري وذنوبي يوجبُ العدلُ حدَّها بانقباضِ
فلايَ فراري من حُكم عدلٍ تقضي أحكامهُ بكبح المواضي
ليس الّا لرحمةٍ اوسعتْني منك لطفاً أيا سريع التراضي
واختفائي بحصنِ قلبٍ جريحٍ يرحضُ الاثمَ بالدم المستفاضِ
فامزُجِ العدلَ سيّدي برضاهُ يقتضي رأفةً لحلّ اعتراضِ
أعطني منك نعمةً واجتذبني لقبولٍ بكل ما انتَ قاضي
ورضاءٍ يزينهُ حسنُ صبرٍ لم تَشِبْهُ وساوسُ الافتراضِ
كي أرى في هداكَ اعظم صَبرٍ راضياً منك بالذي انت راضي

ولنعمة بن توما ما خلا القصائد رسائل ادبيّة اثريّة مسجّعة يتخلّلها الشعر منها رسالة طويلة وجّهها الى القس جبرائيل فرحات اذ كان راهباً في لبنان في دير ماري اليشاع افتتحها بقصيدة اولّها (من الخفيف) :

يا نسيماً سقى الحمى ثمّ حيّا بسلام منازل الاحبابِ
وسرى رقّةً ولطفاً فأذكى بشذا عرفهِ نواحي الهضابِ

ضمّنها من العواطف ارقّها ومن آيات الثناء اصدقها وقد نشر معظمها المنسيور منش

في المشرق. وله رسالة اخرى نثريَّة وشعريَّة كتبها باسم البطريرك اثناسيوس يهنئ بها نقولا بك لتعيينه والياً على الفلاخ اوَّلها: «الحمد لله الذي احسن نظام العالم باصالة رأي الملوك القويم، وأيَّد هذا النظام بالهامهم السلوك في ترتيبه على النهج المستقيم، وانهض هممهم الى القيام بحفظ المعاقل والممالك، والى حراسة البلاد من خطر المظالم والمهالك...»

٢٠ ابن افرنجية

انَّ القلادة الادبيَّة التي ازدان بها جيدُ الشهباء في القرن الثامن عشر عند نهضتها المشكورة يجب ان يُنظم فيها شاعر آخر عثرنا على آثاره عند احد اصحابنا جناب الاديب اسكندر صافي يوم اجتمعنا به في لندن سنة ١٨٨٨. فأطلعنا جنابهُ على مجموع مخطوط عنوانهُ «المجموع المنتظم من فرائد الكلم» لمؤلفه ديدكوز (Didacus) بن انطون افرنجيَّة كتبهُ سنة ١٧٨٠ كما ورد في آخره. وقد افردنا لذكره مقالة في المشرق سنة ١٨٩٩ (٢: ٤٤٢ و٤٩١) فنشرنا قسماً مما اودعهُ الكاتب فيه من الحكم والامثال والنوادر والفكاهات والمنتخبات الشعريَّة فلا حاجة الى تكرارها هنا

وانما وجدنا في هذا المجموع قطعاً شعريَّة من نظمه فلا بُدَّ ان ندرجهُ في سلك شعراء النصرانيَّة الذين نسعى باحياء ذكرهم

وكنَّا نودّ ان نورد شيئاً من اخبار هذا الشاعر ولكن لسوء الحظّ لم يسعفنا وجود شيء منها كما لم نجد الَّا اليسير الزهيد من تراجم الشعراء السابق ذكرهم

وغاية ما نعرفهُ عن ابن افرنجيَّة انهُ كان حلبيَّ المولد والمنشأ من الطائفة الماروئيَّة ومن اسرة كريمة يدلُّ اسمها على اصلها واما اقتبستهُ من الصليبيين في القرون الوسطى. ولا يزال من هذه العائلة بقايا في بلدة اهدن. والمرجَّح ان فرعها الحلبي انتقل من لبنان الى حلب مع غيرهم في اواسط القرن السادس عشر على عهد السلطان سليم الثاني

امَّا شعرهُ فهذا بعض ما ورد منهُ في المجموع المذكور قال في من رفعهُ الدهر بعد الذلّ (من الكامل):

لا تعجبنْ بطالبٍ نال العُلى كهلاً وأخفِضَ في الزَّمانِ الاوَّلِ
فالخمرُ تحكمُ في العقول مُسيئةً وتُداس اوَّل عصرها بالأرْجُلِ

وكتب الى صديق كان عزّاهُ في نكبةٍ (من البسيط):

لمَّا أتاني كتابٌ منك مبتسمٌ عن كلّ فضلٍ وجودٍ غير محدودِ
حكَتْ معانيهِ في أثناء أسطرهِ آثارَكَ البيضَ في احوالِيَ السُّودِ

ومن حسن وصفهِ قولهُ في النفس (من الكامل):

يا درَّةً بيضاء لاهوتيَّةً قد رُكِّبَتْ صَدَفاً من الناسوتِ
جَهِلَ الغُمارَةُ قَدْرَها لشقائهم وتنافسوا في الدرّ والياقوتِ

ومن طريف قولهِ ما كتبهُ عن جارٍ انتقل عنهُ (من الوافر):

تناءت دارُهُ عنّي ولكنْ خيالُ جمالهِ في انقلابٍ ساكِنْ
اذا امتلأ الفؤادُ بهِ فماذا يضرُّ اذا خلت منهُ المساكنْ

وكذلك قال في مفارقة الوطن وفائدة الاسفار (من الكامل):

لا تكترث لفراق اوطان الصِّبا فعسى تنالُ بغيرهنَّ سُعودا
فالدرُّ يُنظَم عند فقد بحارهِ بجميل أجياد الحسان عقودا

وقال يهجو مغنّياً (من مجزوء الكامل):

قد دهاني ما دهاني من ثقيلٍ في الاغاني
قلتُ اذ غنّى عراقاً ليتني في اصفهانِ

ومن ظريف اقواله عن لسان قهوة الخمرة تهجو قهوة البنّ (من الطويل):

سمعتُ لسان الحال من قهوة الطَّلا تقولُ هلمُّوا واسمعوا نصَّ اخباري
فباسمي تسمَّت قهوةُ البنّ في الملا ولكنها لم تحكِ بالفضل أخباري
فمن كذَّبها قد سوَّد اللهُ وجهها وعذَّبها بعد الاهانةِ بالنارِ

وقد تفنن ابن افرنجيَّة في شعره فلهُ الموشَّحات والزجليَّات والبديعيَّات. ومن اقواله ما يُقرأ طردًا وعكسًا كقولهِ (من الكامل):

عدلوا فما ظُلمَتْ بهم دولٌ سَعِدوا فما زلَّت بهم قدَمُ
بذلوا فما شَحَّت لهم شيَمٌ رشَدوا فما زالت لهم نِعَمُ

تُقرأ معكوسة وتُصبح هجوًا بدلًا من المديح:

قدَمٌ بهم زلَّت فما سَعدوا دولٌ بهم ظُلمت فما عدلوا
نِعَمٌ لهم زالت فما رشدوا شِيَمٌ لهم شَحَّت فما بَذَلوا

ولهُ مناظرة في الشعر العامي بين التبغ والقهوة اوَّلها:

قصَّة جرت، بين التُّتن والقهوة، وتفاخر الاثنان، وزادا برهان

الى ان ختمها بتحكيم العرَق بينهما متفكهًا:

قال العرق نحن رفاقٌ جُملَهْ في جَمْعنا نخدمُ اهل الكَيْفْ
انتَ بلاها ما يبان لك لذَّه وانتِ بلاهُ ما تفعليهِ كلُّه زَيْفْ
الطاعن بجنسهِ في المثَل قد قالوا في الحال هو طاعن بنفسهِ يا حَيْفْ
والصلحُ في الحالة رئيس الاحكام وانتما اثنان بحالة اخوانْ

فتصالح الاثنان وزالت الاحقادُ وتوافقا كأنّ المقدّر ما كانْ

وقد نشرنا لابن افرنجيّة في المشرق (٢[١٨٩٩]: ٤٤١—٤٤٥) دائرتين تتضمّنان قصيدتين قافيّة وعينيّة تأنّق في تصويرهما مجبّرَين اسود واحمر. وكل بيت يبتدئ من مركز الدائرة وينتهي اليه بعد استدارته على شكل عجيب. فليراجعا هناك

وقد قال ابن افرنجيّة يصف مجموعةً (من السريع):

مجموعُنا هذا لهُ رونقٌ كرونقِ اللؤلؤ في عِقْدهِ
كادت مجاميعُ الوزى عندهُ تُنسى لديهِ من سنا مجدهِ

ثمّ يقول معتذرًا لما يكون وقع فيه من الاغلاط (من مجزوء السريع):

كتبتُهُ مجتهدًا وليس يخلو من غَلَطْ
فقُلْ لمن يلومُني من ذا الذي ماساء قطْ

وشفعهُ بما هو في معناهُ (من الكامل):

يا ناظرًا فيما عبدتُ لجمعهِ عذرًا فانّ اخا الفضيلةِ يعذرُ
عِلماً بانّ المرءَ لو بلغ المَدى في الفضل والعِرفانِ فهو مقصّرُ
فاذا ظفرتَ بزلّةٍ فافتَحْ لها باب التجاوزِ فالتجاوزُ أجدرُ
ومن المحال ان ترى احدًا حوى كُنه الكمال وذا هو المتعذّرُ
والنقصُ في نفسِ الطبيعةِ كامنٌ فبنو الطبيعةِ نقصهم لا يُنكرُ

(لها بقيّة)